في تناول البلاغة وتعليمها

جون صفدي[1]

مقدّمة

تقدّم هذه المقالة وجهة نظر أخرى مغايرة لتناول موضوع البلاغة كما هو في المدارس حاليًّا، وذلك عن طريق التّعمّق اليسير في هذا العلم المهمّ من علوم العربيّة من كتب التّراث، واستنباط بعض التّبصّرات الّتي تساعد في إيصال هذا العلم إلى الطّلّاب.

البلاغة لغةً من الجذر (ب.ل.غ)، وبَلَغَ الشّيءَ إذا أدركه، واصطلاحًا هو بلوغ الكلام إلى المعنى المراد لدى القائل، أو موافقة الكلام لمقتضى الحال. لا يعني ذلك بالضّرورة استعمال الكلمة المناسبة فقط، كالفرق بين "جلس" و"قعد"، فهذا أحد مستويات موافقة الكلام لمقتضى الحال. أمّا المستوى الأكثر عمقًا فهو موافقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا كان الحال غضبًا أو ترهيبًا استُعملت فيه حروف قويّة لا ليّنة، وإذا كان الحال ضحكًا أو غزلًا أو تودّدًا أو رثاءً استُعملت فيه الحروف الليّنة لا القويّة؛ ويحسن في الحالتين مثال معلّقة عمرو بن كلثوم الّتي يبدؤها بذكر الخمر ومجالس اللّهو، فيكون الكلام فيها ليّنًا وخفيفًا، وعندما يبدأ المقطع الّذي فيه يتوعّد عَمْرًا بن هند تصير الحروف قويّة وصعبة اللّفظ. فهذه هي البلاغة وهذا هو مقتضى الحال بالإجمال.

أمّا علم البلاغة، فهو علم طارئ على العربيّة بعد الإسلام، ومنبثق من الإسلام. ويقول ابن خلدون إنّ "هذا العلم [ويقصد علم البيان الّذي هو أحد فروع البلاغة] حادث في الملّة بعد علم العربيّة واللّغة، وهو من العلوم اللّسانيّة"[2]. وأمّا محمّد علي التّهانويّ الهنديّ فيجعل علم البيان ضمن باب الباء، فصل العين، مادة "البدعة"؛ ويجعل البيان من البدع

---

[1] ماجستير في الدراسات العربيّة والإسلاميّة.

[2] عبد الرّحمن بن خلدون، **المقدّمة**، تحقيق: حامد أحمد الطّاهر (القاهرة: دار الفجر للتّراث، 2013)، 706.

المحمودة، فيقول: "فمن البدع الواجبة على الكفاية: الاشتغال بالعلوم العربيّة، المتوقّف عليها فهم الكتاب والسّنّة، كالنّحو والصّرف والمعاني والبيان واللّغة"[3]. وربما لا يرمي هذان القولان المتشابهان إلى أنّ البلاغة لم تكن قبل الإسلام، وإنّما كانت ظاهرة، ولم تكن قواعدها قد وضعت بعد لتتحوّل لاحقًا إلى علم.

أقسّم هذه المقالة إلى بابين أساسيّين: الأوّل حول كيفيّة تناولِ العلماءِ في التّراث العربيّ موضوعَ البلاغة، وسأعرض أقوال عبد القاهر الجرجانيّ، وعبد الرّحمن بن خلدون، ومحمّد عليّ التّهانويّ الهنديّ، والشّيخ معين العامليّ. وكلٌّ له وجهة نظر مختلفة إلى حدّ ما، فالجرجانيّ أتناول أقواله من منطلق نظريّته - "نظريّة النَّظْم"، وهو يستحقّ أن أتطرّق إليه أكثر من غيره في المقالة نظرًا لما أضافه لعلم البلاغة من أفكار جديدة. وأمّا ابن خلدون من وجهة نظر علم الاجتماع والتّهانويّ والعامليّ من وجهة نظر معجميّة، فيتناولون علم البلاغة وما يتعلّق به من علوم كالفصاحة والبديع، كلّ على حدة. في الباب الثّاني سأعرض كيفيّة تناول الكتب المدرسيّة لهذا العلم المهمّ، وأحاول طرح فكرة أنّ التناول التّراثيّ يجعل للّغة العربيّة ونصوصها حياة لا تحظى بها في الكتب المدرسيّة.

تناول الكتب التّراثيّة للبلاغة

أناقش في هذا القسم موضوع اختلاف تعريف علم البلاغة بين الكتب العلميّة التّراثيّة وبين الكتب المدرسيّة في المدارس العربيّة في البلاد. وإلى جانب تعريفات الكتّاب القدماء، أناقش توجّهاتهم نحو علم البلاغة، فبعضهم يتوجّه إلى علم البلاغة من منظور دينيّ، ومنهم من يتوجّه إليه من منظور فنّي أدبيّ، ومنهم من يتوجّه إليه من منظور اجتماعيّ. سأتناول كتاب "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجانيّ (ت 471 ه)، وكتاب "المقدّمة" لعبد الرحمن بن خلدون (ت808 ه)، وكتاب "كشّاف اصطلاحات الفنون" لمحمد عليّ التهانويّ (ت 1158 ه)،

---

[3] محمّد التّهانويّ الحنفيّ، **كشّاف اصطلاحات الفنون**، وضع حواشيه: أحمد حسن بسج، 1 (بيروت: دار الكتب العلميّة، 2006)، 179.

وكتاب "دروس في البلاغة" للشّيخ معين العامليّ (معاصر). ومقابل هذه الكتب سأتناول كتاب "المغني في الأدب" بشقّيه النّثر والشّعر القديم والحديث، المستعمل حاليًّا في تدريس الموادّ القريبة من البلاغة في المنهاج التّعليميّ العربيّ في إسرائيل.

أبدأ بعرض آراء العلماء القدماء مستهلًّا بالشّيخ عبد القاهر الجرجانيّ الّذي نظّر لنظريّة في البلاغة جعلته يستحقّ القول إنّه قد برع فيها فعلًا. صحيح أنّ الجرجانيّ ليس أوّل من اشتغل في البلاغة، فقبْله كان عبد الله بن المعتزّ (ت 296 ه) الخليفة العبّاسيّ (مدّة يوم وليلة) مؤلّف "كتاب البديع"، ولم تكن العرب غافلة عن هذا العلم قبل ابن المعتزّ العبّاسيّ، لكنّه كان على شكل ظواهر ولم يكن قد تمّ تقعيد قواعده بعد، والجرجانيّ برع فيه كما ذكرت.

للجرجانيّ نظريّة في البلاغة أسماها "نظريّة النَّظْم"، تقوم على بلاغة نظم المعاني في النّفْس، لا على بلاغة نَظْم الكلام (المفردات). ونظم المعاني في النّفس يفضي إلى حُسن نظم الكلام اللّفظيّ لاحقًا، وحسن النّظم هذا الّذي يبدأ بالنّظم في النّفس ثم بنظم الكلام اللّفظيّ "هو الإبانة، وهو البلاغة، وهو الفصاحة، وهو البيان، وهو البراعة"[4]. تقوم هذه النظريّة على ثلاثة أسس: الأوّل نَظم المعاني في الذّهن، فالكلام غير المنظوم في النّفس لا يكون منظومًا في النّطق أو الكتابة؛ والثّاني مراعاة موقع الكلمة في السّياق والتّأليف، فلا يمكن مثلًا بناء فعل للمجهول مع وجود فاعل ظاهر؛ وأمّا الثّالث فتوخّي عمليّة التّأليف، بحيث يكون ترابط بين أقسام الكلام (الاسم والفعل الحرف)[5].

يقابل هذه النّظريّة أو هذا التّوجّه للجرجانيّ توجّهٌ آخر يقول بأنّ اللّفظ سبيل معرفتنا للمعنى. هذا التّوجّه الآخر هو الّذي هدمه الجرجانيّ، وأسّس نظريّته على التّوجّه المغاير له

---

[4] محمّد محمّد أبو موسى، **مدخل إلى كتابيْ عبد القاهر الجرجاني** (القاهرة: مكتبة وهبة، 2021)، 6.

[5] محمّد الجاغوب، **برنامج تعليميّ قائم على نظريّة النظم للجرجاني** (عمّان: دار غيداء للنّشر والتّوزيع، 2010)، 23-34.

تمامًا، بحسب ما أشار محمّد محمّد أبو موسى: "ولو أنّك وقعت في الانشغال به [...] تعتقد أنّك تدرس ما بناه الشّيخ [الجرجانيّ]، وأنت تدرس ما هدمه، وهذا الانقلاب الكامل يحدث بسبب غفلة صغيرة جدًّا، وهي انصباب العناية إلى التّركيب اللّغويّ، وليس إلى ما وراءه من تركيب المعنى"[6].

وبالانتقال من المشرق العربيّ إلى مغربه، وفي الفصل المعنون بـ "علم البيان"، يرى ابن خلدون (ت 808 هـ) أنّ البلاغة علمٌ "يبحث في هذه الهيئات والأحوال حتّى تتطابق باللّفظ جميع مقتضيات الأحوال"[7]. ثم يكمل ابن خلدون في تتبّع تاريخ هذا العلم وتتبّع تاريخ التّأليف فيه، إلى أن يصل إلى استنتاج أنّ علم البلاغة علم كماليّ يحتاج إلى استقرار اجتماعيّ ووفور عمرانيّ لكي يُؤلَّف فيه. ويضيف أنّ المغاربة من العرب أقل قوامًا من المشارقة فيه، لأنّ هذا العلم بحسب ابن خلدون "كماليّ في العلوم اللّسانيّة، والصّنائع الكماليّة توجد في وفور العمران"[8]، أو لأنّ العجم اهتموا به أكثر من العرب والمشرق العربيّ عجمه أكثر من عربه، ويضرب مثالًا على هذا في تفسير جار الله الزّمخشريّ في "الكشّاف عن حقائق التّنزيل"، فيقول إنّ تفسير الزّمخشريّ هو أصل هذا الفنّ.

وننتقل من المغرب العربيّ لنصل إلى الهند، أي إلى الشّيخ العلّامة محمّد التّهانويّ الحنفيّ (ت 1158 هـ)، صاحب كتاب "كشّاف اصطلاحات الفنون"، الّذي جمع في كتابه هذا من آرائه وآراء غيره تعريفات لمختلف الفنون والعلوم، وقد تكلّم عن البلاغة وما يحيط بها من المصطلحات والعلوم كالبديع والفصاحة. ولكن اللّافت في تمييز أقسام علوم البلاغة عن بعضها، أنّ التّهانويّ يفاضل بين البديع والبلاغة والفصاحة. صحيح أنّ مبنى كتابه رتّب فيه تقسيم المصطلحات بحسب الحروف الهجائيّة، إلا أن التّهانويّ أحيانًا يتجاوز هذا التّقسيم

---

[6] أبو موسى، **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**، 53.

[7] ابن خلدون، **المقدّمة**، 707.

[8] م. ن.، 708.

إذا لزم الأمر. أي أنّه تناول كلًّا من الفصاحة والبديع والبلاغة على حدة، ولكنّه ربط بينها بعلاقة مفاضلة تميل إلى البلاغة.

أقوال في البديع

البديع هو علم يُعنى بتحسين الكلام باستخدام الأساليب أو ما يصطلح عليه اليوم بـ"المحسنات اللّغويّة" كالجناس مثلًا. لا يورد التّهانويّ في هذا الشّأن إلّا أقوال الخطيب جلال الدّين القزوينيّ (صاحب "تلخيص المفتاح"، ت 739 ه)، الّذي يفصل فصلًا واضحًا بين البديع والبلاغة. يقول الخطيب بوضوح إنّ علم البديع ليس قسمًا من أقسام علوم العربيّة، بل ذيل لعلم البلاغة؛ "وأمّا البديع فقد جعلوه ذيلًا لعلم البلاغة، لا قسمًا برأسه من أقسام العلوم العربيّة على ما سبق"[9]. بل إنّ الخطيب قال إنّ البديع لا يحسن بلا بلاغة، لا العكس، وشبّه الكلام الذي فيه محسنّات بديعيّة دون بلاغة "كتعليق الدّرر على أعناق الخنازير"[10]. فمثال من عندي على ذلك هذا القول: "إنّما قوله عدد وعمره فند، فإن قام جَلَس وإن نام عَبَس"، فهذا نصّ فيه محسّنات بديعيّة: السّجع والطِّباق وحُسن التّقسيم والازدواج، ولكنّه نصّ لا معنى له، ولا بلاغة فيه، لأنّه ضعيف التّأليف وركيك المعنى، إذ يمكن للبديع أن يكون مفيدًا إذا أُلحِق بتعبير بليغ، ولكنّه لن يكون مفيدًا إذا ألحق بتعبير غير بليغ.

ولذلك يقول الخطيب القزوينيّ إنّ الكلام الّذي يخلو من المحسّنات يمكن أن يكون بليغًا إذا ما وُجدت فيه شروط البلاغة؛ "فلا يكون الخلوّ عنها من المحسّنات التّابعة لعلم الكلام ضرورة أنّها تكون بعد البلاغة، بل المراد منها ما سواها ممّا لا دخل له في البلاغة من المحسّنات"[11]، بمعنى أنّ الكلام قد يكون بليغًا، ولكنّه قد يخلو من المحسّنات البديعيّة، لأنّها ثانويّة وليس أساسيّة.

---

[9] التّهانويّ، **كشاف اصطلاحات الفنون**، 1: 29.

[10] م. ن.

[11] م. ن.، 1: 29.

أقوال في الفصاحة

وأمّا الفصاحة ففيها أقوال عدّة يخالف بعضها الآخر، ولكيلا أطيل الحديث فيها، لأنّ ذلك ليس غرضي الرئيس من النقاش، ألخّص هذه الآراء فيما يلي.

أطلق عبد القاهر الجرجانيّ (ت 471 ه) على البلاغة وصف الفصاحة: "منها [أي من الفصاحة] وصف الكلام به يقع التّفاضل ويثبت الإعجاز، وعليه يطلق البراعة والبلاغة والبيان وما شاكل ذلك"[12]. وأمّا يوسف بن أبي بكر السّكّاكيّ (ت 626 ه) فقد خالف شرط الفصاحة في وصف الكلام بالبليغ: "وقيل: إنه لا يشترط في البلاغة من الفصاحة سوى الخلوص عن التّعقيد المعنويّ"[13].

وأمّا التّهانويّ فيقسّم الفصاحة إلى أقسام ثلاثة: أوّلًا فصاحة المفرد، وهي "خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللّغويّ"[14]. وثانيًا فصاحة الكلام، وهي "خلوصه من ضعف التّأليف وتنافر الكلمات والتّعقيد مع فصاحتها، أي فصاحة الكلمات، فهو حال من الضّمير في خلوصه [...] نحو: زيد أجلل [بدلا من أجلّ]، وشَعرُهُ مستشزر، وأنفه مُسرّج"[15]. وأخيرًا فصاحة المتكلّم، وهي أن يكون قادرًا على "التّعبير عن المقصود بلفظ فصيح، وفي ذكر المَلَكَة إشعار بأنّ الفصاحة من الهيئات الرّاسخة، حتّى لو عبّر من كلّ مقصود بلفظ فصيح من غير رسوخ ذلك فيه لا يسمّى فصيحًا في الاصطلاح"[16].

وأمّا أقسام الفصاحة الثلاثة الّتي أوردها التّهانويّ، واكتفيت بذكرها دون استفاضة، فقد جاءت في قول المحقّق سعد الدّين التّفتازانيّ (ت 792ه) إنّ المفرد[17] غير الفصيح لا يؤثّر في

---

[12] م. ن.، 3: 409.

[13] م. ن.، 1: 187.

[14] م. ن.، 3: 409.

[15] م. ن.، 3: 410.

[16] م. ن.

[17] المفرد هو ما لا يدل جزؤه على معناه.

فصاحة المركّب. وعلى عكسه أصرّ السّيّد الجرجانيّ (ت 471هـ) على فصاحة المفرد حتّى يوصَف الكلامُ بالفصاحة[18].

أقوال في البلاغة

يورد التّهانويّ في فصل البلاغة بعض الأقوال، وسأرتّبها بحسب الادّعاءات الواردة:

يقول السّكّاكيّ إنّ للبلاغة طرفين، الأوّل طرف أعلى وإليه تنتهي البلاغة، وهو الإعجاز أو ما يقترب منه، أي من حدّ الإعجاز، وحدّ الإعجاز عند السّكّاكيّ هو الإتيان بمقدار أقصر سورة. والثّاني طرف أسفل، "وهو ما إذا غيّر عنه إلى ما دونه التحق بأصوات الحيوانات عند البلغاء وبينهما مراتب كثيرة"[19].

ويوافقه في ذلك الإمام جلال الدّين السّيوطيّ (ت 911هـ) في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، فيقول: "مراتب الكلام المحمود متفاوتة: فمنها البليغ الرّصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السّهل، ومنها الجائز الطّلق الرّسْل. فالأوّل أعلاها، والثّاني أوسطها، والثّالث أدناها، فحازت بلاغة القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصّة"[20]. ومن الجدير بالذّكر ههنا أنّ الإمام السّيوطيّ جعل تنظيره منطلقًا من عبارة "الكلام المحمود" لأنّه يوافق السّكّاكيّ في أنّ ما دون أدنى مراتب الكلام هو صوت الحيوانات، وقد استعمل عبارة "الكلام المحمود" لتنزيه القرآن عن الاقتراب لهذه المرتبة الدّنيا.

وقد عارضهما المحقّق التّفتازانيّ بشأن جعل الإعجاز طرفًا أعلى للبلاغة، فقال إنّه "لا معنى لجعل حدّ الإعجاز وما يقرب منه طرفًا أعلى، إذ المناسب أن يؤخذ حقيقيًّا كالنّهاية، أو نوعيًّا كالإعجاز"[21]. أي أنّ التّفتازانيّ لا يوافق على السلّم الّذي يبدأ بأصوات الحيوان وينتهي بالإعجاز وأقرّه السّكّاكيّ والسّيوطيّ، بل قال في كتابه "شرح مقاصد علم الكلام" إنّ الإعجاز

---

[18] التّهانويّ، **كشّاف اصطلاحات الفنون**، 3: 410.

[19] م. ن.، 1: 187-188.

[20] م. ن.، 1: 188.

[21] م. ن.

عنده يقاس من خلال الجزالة، والجزالة عنده هي البلاغة في التّأليف مع الأسلوب والنَّظْم، ومخالفة أساليب كلام العرب، والإنباء عن المقصود بلا مزيد، والإخبار عن قصص الأوّلين من غير سماع ولا تلقين، والإخبار عن المغيّبات المستقبليّة[22].

وأمّا ربط الفصاحة بالبلاغة كما رأى عبد القاهر الجرجانيّ، وأوردت رأيه سابقًا، فهذا ما يعارضه التّهانويّ، إذ يقول: "فإن قيل: ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة، وعلم البلاغة كافل بإتمام هذين الأمرين، فمن أتقنه وأحاط به لِمَ لا يجوز أن يراعيهما حقّ الرعاية، فيأتي بكلام هو في الطرف الأعلى، ولو بمقدار أقصر سورة[؟] قلت [أي التّهانويّ]: إنّ العلم [أي البلاغة] لا يتكفّل إلّا بيان الأحوال، وأمّا الاطّلاع على كمّيّات الأحوال وكيفيّاتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات، فأمر آخر"[23]. أي أنّ أقصر سورة تفوق حد الإعجاز في البلاغة بحسب التّهانويّ، لأنّ الأمر الآخر الّذي أشار إليه هو القرآن.

خلاصة أقوال التّهانويّ وغيره ممّن استشهد بهم في الفصاحة والبلاغة والبديع، أنّ البديع ما هو إلّا أساليب تحسين لغويّ، وهو ذيل من ذيول علم البلاغة وأنّه ليس علمًا منفردًا من علوم العربيّة. والبديع ليس شرطًا ليكون الكلام كلامًا بليغًا، أي أنّ علم البديع ليس العلم الّذي يجعل الكلام البليغ بحدّ ذاته، فالكلام لا يزيد بلاغةً كلّما ازدادت فيه المحسّنات البديعيّة، فهي تبرز في النّصّ البليغ وليس العكس.

والفصاحة والبلاغة إمّا أن يكونا أمرًا واحدًا مترابطًا -حسب الجرجانيّ الّذي يقول إنّ البلاغةَ فصاحةٌ وبراعةٌ وما إلى ذلك- وإمّا أن يكونا أمرين مختلفين، ولكن بينهما علاقة بسيطة كقول السّكّاكيّ، فيكفي النّصّ البليغ أن يخلو من ضعف التّأليف.

أمّا البلاغة الّتي هي محور هذه المقالة فقد حازت على مركزيّة التّنظير لدى كلّ الأعلام المذكورين في كلّ أنواع علوم العربيّة، أي كانت البلاغة مركز التّنظير للفصاحة والبديع على

---

[22] انظر: سعد الدّين التّفتازانيّ، **شرح مقاصد علم الكلام** (باكستان: دار المعارف النّعمانيّة، 1981)، 2: 184-185.

[23] التهانويّ، **كشاف اصطلاحات الفنون**، 1: 188.

حدّ سواء. ذلك لأنّ للبلاغة علاقة وثيقة بالقرآن، فالتّنظير لها لا يخلو من منطلقات عقائديّة دينيّة، كما تبيّن سابقًا.

وأخيرًا، نجمل بترتيب الآراء عن الفصاحة والبلاغة والبديع بحسب ورودها تاريخيًّا، لأنّ هذه العلوم أو الموضوعات عولجت ونُظِّر لها بحسب ظروف تاريخيّة مختلفة ومتغيّرة، تطوّرت مع مرور الأيّام وعبر التّاريخ؛ فقد بدأ الكلام عن هذه العلوم أو الموضوعات قبل عبد القاهر الجرجانيّ على شكل ظواهر بلا قواعد، كما عند ابن المعتز العبّاسيّ (ت 296 ه). ثمّ جاء عبد القاهر الجرجانيّ (ت 471ه) فأنشأ نظريّة النّظْم الّتي مفادها أنّ البلاغة هي الفصاحة والإبانة وترتيب المعنى في النّفس ثمّ الإبانة عنه في القول. ثمّ جاء يوسف بن أبي بكر السّكّاكيّ (ت 626ه) فقال أوّلًا إنّ الفصاحة ليست شرطًا من شروط البلاغة، إنّما يكفي من الفصاحة أن تنزّه الكلام عن غريب الكلام، وثانيًا إنّ للبلاغة طرفًا أعلى هو الإعجاز القرآنيّ وطرفًا أدنى هو صوت الحيوان. ثم جاء سعد الدّين التّفتازانيّ (ت 792 ه) وجلال الدّين القزوينيّ (ت 739 ه) بعد السّكّاكيّ وعارضا السلّم الّذي وضعه، فذكر القزوينيّ أنّ البديع ليس إلّا ذيلًا من ذيول البلاغة، وقدّم التّفتازانيّ تعريفًا للإعجاز القرآني مختلفًا كليًّا عن سلّم السّكّاكيّ، كما ورد أعلاه.

ارتباط البلاغة بعلوم أخرى

بدا واضحًا في البند السّابق أنّ البلاغة عند العلماء القدماء مرتبطة بعلوم أخرى. ويربط ابن خلدون تفرّغ النّاس لعلم البلاغة في قطر من الأقطار بوفور العمران. وحتّى نفهم المعنى الّذي أراد أن يوصله ابن خلدون، علينا فهم ما قصده بكلمة "العمران". فالعمران عنده هو الحياة الاجتماعيّة الّتي لا تقوم على التّعاون بين البشر بكلّ شيء، فلا بدّ أن يكون للإنسان مَن يعينه على قوته أو الدّفاع عن نفسه من أيّ عدوان، ولا بدّ له بدوره أن يعين غيرَهُ عل ذلك أيضًا. وعمليًّا، فالعمران عنده هو ما يصطلح عليه اليوم بـ"الحضارة". ويمكن الإسهاب في فهم العمران عند ابن خلدون وربطه بعلم البلاغة عند حديثه في فصل "الظّلم مؤذن بخراب

العمران"[24]عن السّببيّة الّتي تربط الظّلم بخراب البلدان. فظلم السّلطان للنّاس في انتهاك أغراضهم وأعراضهم وأخذ مالهم يقطع آمالهم بكسب العيش، ويدفع بهم إلى طلب الرّزق خارج نطاق القطر. ومن بين أولئك الّذين يُدفعون إلى طلب الرّزق في مكان آخر، مَن يشتغلون في الأدب والنّظْم والتّأليف والتّعليم وسائر ما يتعلّق بالبلاغة، واللّافت هنا ربط ابن خلدون وفور العمران في القطر بشيوع البلاغة بين أهله، فابن خلدون لم يفرد فصلًا لعلاقة وفور العمران بأيّ علم آخر إلّا البلاغة.

أمّا التّهانويّ والسّكّاكيّ والجرجانيّ فيربطون ذلك بعلم الكلام، وجعلوا بلاغة القرآن بوصلة الاشتغال بعلم البلاغة. فالسّكّاكيّ يجعل أقصى حدّ من بلاغة البشر كأقصر سورة في القرآن، لإيمانه بأنّ البشر لن يصلوا إلى بلاغة القرآن. والمعجزة البلاغيّة في القرآن هي أنّ البشر لا يستطيعون إنشاء نصّ يوازي البلاغة القرآنيّة، ولذلك جعل أقصى حدّ قد يصل إليه الإنشاء البشريّ هو أدنى حدّ للإنشاء القرآنيّ.

ويعدّد جلال الدّين السّيوطيّ في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ما يقارب الثّمانين علمًا من علوم القرآن. وفي باب العلم الرّابع والسّتين يذكر البلاغة ويقسم الكلام المحمود إلى درجات، ويقول إنّ القرآن حاز على كل هذه الدّرجات في مواضع مختلفة. وإعجاز القرآن في أنّ الإنسان لا يمكن له أن يأتي في كلّ كلامه بالكلام المحمود.

وأمّا التّهانويّ فمفاد قوله إنّه يفرّق بين الإعجاز البلاغيّ في القرآن وبين البراعة البلاغيّة البشريّة، وعامل التّفريق بينهما عند التّهانويّ هو أنّ الإعجاز البلاغيّ القرآنيّ يوافق مقتضى كلّ الأحوال، بينما البلاغة البشريّة توافق مقتضى حال واحد. أو بعبارته الّتي ذكرناها آنفًا: "الاطّلاع على كمّيّات الأحوال وكيفيّاتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات".

---

[24] ابن خلدون، **المقدّمة**، 351.

البلاغة في الكتب المدرسيّة

سيكون من الصّعب عقد مقارنة بين تناول البلاغة في الكتب المدرسيّة وتناولها في كتب التّراث، لأنّ مقارنة كهذه ستكون منقوصة، نظرًا لعدم تطرّق الكتب المدرسيّة إلى موضوع البلاغة بما يكفي، وما من أوجه للمقارنة بين ما ورد فيها وبين ما ورد في الكتب التّراثيّة. ذلك لأنّ البلاغة في الكتب المدرسيّة لا تحظى بالتّناول الّذي تستحقّه، فتعليمها في هذه الكتب تشوبه شوائب عديدة.

وقبل البدء في هذا البند تنبغي الإشارة إلى أنّ كتاب "البلاغة الواضحة" من تأليف علي الجارم ومصطفى أمين، كان معتمَدًا سابقًا في المنهاج الدّراسيّ الخاصّ بالمدارس العربيّة، ولكنّ هذه المقالة تناقش ما هو معتمد اليوم، أي في كتاب "المغني في الأدب العربيّ" (الأدب القديم والأدب الحديث).

بالنّسبة لما يتعلّق بموضوع البلاغة في المنهاج الحاليّ، فاللّافت أوّلًا أنّه لم يُخصَّص فيه فصل لهذا العلم باعتباره بابًا مهمًّا من أبواب العلوم العربيّة، أو كما عبّر عنه الشّيخ معين العامليّ بأنّه أشرف علوم الأدب وأهمّها[25]. إنّ ما ورد وفق المنهاج لا يجذب انتباه الطّالب إلى عمق هذا العلم من حيث إنّه الأداة لترتيب الأفكار، وإنّ موافقة مقتضى الحال هي الباب لفهم النّصّ كما دار في ذهن الكاتب، والباب لتأليف نصوص واضحة بالدّرجة الأولى، فيَحْرم الطّالب من أداة في غاية الأهمّيّة تساعد على فهم النّصوص وتأليفها.

ونرى أيضًا اختزال البلاغة بالأساليب البديعيّة وتسميتها خطأً بـ"الأساليب البلاغيّة"، وهذا ما لم يثبت في أيّ من المراجع التّراثيّة، بل الثّابت هو ما ذُكر سابقًا وهو أنّ علم البديع ليس إلا ذيلًا من ذيول علم البلاغة.

وأخيرًا، نلاحظ غياب المصطلحات الرئيسيّة في حقل علوم العربيّة كالفصاحة والبلاغة

---

[25] الشّيخ معين العاملي، **دروس في البلاغة** (بيروت: دار جواد الأئمة (ع) للطّباعة والنّشر والتّوزيع: 2012)، 11.

والبديع (البلاغة والبديع بمفهومهما التّراثيّ الّذي يفصل بينهما، وليس ذلك المفهوم المغلوط الّذي يجمع ما بينهما).

في الواقع، لا يمكن لهذا البند من المقالة إلّا أن يكون قصيرًا يُخبر بأنّ المقارنة شبه مستحيلة بين الكتب التّراثيّة والمدرسيّة نظرًا لغياب أوجه المقارنة بين طرفيها، ولكنّه يمهّد لما بعده من توصيات ستفيد الطّلّاب فيما لو تبنّاها المعلّمون ولو على حساب الخروج اليسير - وهو خروج جوهريّ- عن المنهاج المقرّر ثمّ الاستفادة ممّا في هذه المقالة من أجل أن يفهم الطّلّاب النّصوص المقرّرة.

إجمال: مفاد المقالة العمليّة

تناولت هذه المقالة كيفيّة معالجة البلاغة في الكتب التراثيّة، فعرضت بداية "نظريّة النّظم" لدى عبد القاهر الجرجانيّ، وهي تقوم على أنّ البلاغة عمليًّا ترتيب الأفكار في الذّهن قبل تقييدها نصًّا أو نطقًا. ثمّ عرضت ما ورد عند ابن خلدون من قوامة أهل قطر ما على البلاغة وارتباطها بوفرة العمران في القطر، وأنّها دليل على سلامة المجتمع. وأخيرًا، انتقلت إلى تعريفات العلّامة الهنديّ محمد علي التّهانويّ الّذي عرّفنا بالعلاقات بين أنواع علوم العربيّة من خلال أقواله وأقوال غيره من أعلام هذه العلوم عن علم البلاغة والفصاحة والبديع، وإلى وصف الشيخ معين العامليّ للبلاغة بقوله إنّها حازت على أشرف مرتبة من علوم العربيّة.

لقد قام عندي الدّليل على أنّ تعليم البلاغة مع التّطرق إلى ما ورد فيه من تحدّيات كما هو في الكتب التّراثيّة- مفيد أكثر للطّلبة لكي يتفاعلوا تفاعلًا حقيقيًّا مع النّصّ المقرّر، ولو كان ذلك على حساب الخروج قليلًا عن المنهاج المقرّر كما أشرت. فالبلاغة مثلًا بحسب نظريّة النَّظْم تعطي للّغة العربيّة حيويّتها الّتي تستحقّها، وهي كائن حيّ حقيقيّ وليست مجرّد كلمات وجمل عربيّة من أزمنة وأمكنة مختلفة يُتعامل مع كلٍّ منها بأسلوب التّعامل نفسه (أي على أساس الأساليب البديعيّة)، بحيث تكون الأسئلة في الكتب المدرسيّة غالبًا أسئلة في فهم المقروء ثمّ تُحدَّد بعض الأساليب البديعيّة (الّتي تسمّى خطأً "أساليب بلاغيّة") وغاياتها.